دعوى تسرب الماقبليات الدينية إلى السنة النبوية

– عرض ونقد –

د. محمد رمضاني

كلية العلوم الإسلامية، جامعة الوادي، الجزائر.

ramdani-mohammed@univ-eloued.dz

بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الدولي الرابع للهيئة العامة للأوقاف بدولة ليبيا:

السنة النبوية، حجيتها، ضوابط فهمها، دفع المطاعن عنها

أيام: 13 – 15 /2026/1م

ملخص

تتغيَّا هذه الورقة البحثية مناقشة إحدى المزاعم المركزيّة في الخطاب الاستشراقي، والخطابات المناوئة للتراث في العالم العربي (الحداثة، العلمانية، الاتجاه الشيعي المعاصر، القرآنيون ...)، وهي الدعوى بأنَّ كثيرا من المضامين العقدية والفقهية التي تحملها الأحاديث النبوية هي في الحقيقة وافدة من الفضاء الديني اليهودي والنصراني تسربت إلى المدونة الحديثية عن طريق مسلمة أهل الكتاب من الرواة كعبد الله بن سلام رضي الله عنه، وكعب الأحبار ووهب منبه رحمهما الله، وغيرهما من النقلة ممن كانت لهم خلفية دينية سابقة.

فالمرادُ بالماقبليات الدينية: الموروثات الدينية السابقة للإسلام، والمنتمية – أساسا – إلى اليهودية والنصرانية المحرَّفتين، والتي تتدعي الخطابات المناوئة للتراث أنها تسربت إلى السنة النبوية بفعل رواة الحديث.

وتستند هذه الدعوى على التشابه الموجود بين النصوص اليهودية والمسيحية وبين بعض الأحاديث النبوية في البنية والدلالة، وتحمّلُ منهج النقد الحديثي جريرة الفشل في اكتشاف تسرّب هذه النصوص ومن ثم فرزها وتحييدها.

وهذه الفرضية – كما ذكرنا – حاضرة بكثافة في إنتاج المستشرقين بدءًا ب "جولدتسيهر"، "ألفريد غيوم"، "جيمس أندرسون"، و"جوزيف شاخت"ـــ وهي تتردد كذلك في كتابات خصوم السنة على اختلاف توجهاتهم الفكرية أمثال: إسماعيل أدهم، محمود أبو رية، محمد أركون، عبد المجيد الشرفي، حمادي الذويب، مصطفى بوهندي .. وغيرهم.

وسيسعى هذا البحث إلى عرض هذه الدعوى ببيان جذورها وأدلة القائلين بها، مستخرجة من كتبهم،

ثم مناقشتها على ضوء قواعد المنهج العلمي وقواطعِ العقل والتاريخ.

مقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وبعد:

تتغيَّا هذه الورقة البحثية مناقشة إحدى الفرضيات المركزيّة في الخطاب الاستشراقي، والخطابات المناوئة للتراث في العالم العربي بمختلف تمظهراتها: (الحداثة، العلمانية، الاتجاه الشيعي المعاصر، القرآنيون ...)، وهي الزعمُ بأنَّ كثيرا من المضامين العقدية والفقهية التي تحملها الأحاديث النبوية وافدة من الفضاء الديني – اليهودي والنصراني–، تسربت إلى المدونة الحديثية عن طريق مسلمة أهل الكتاب من الرواة كعبد الله بن سلام رضي الله عنه، وكعب الأحبار ووهب منبه رحمهما الله، وغيرهما من النقلة ممن كانت لهم خلفية دينية سابقة.

وتستند هذه الدعوى على التشابه الموجود بين النصوص اليهودية والمسيحية وبين بعض الأحاديث النبوية في البنية والدلالة، وتحمّلُ منهج النقد الحديثي جريرة الفشل في اكتشاف تسرّب هذه النصوص ومن ثم فرزها وتحييدها.

وهذه الفرضية – كما قلنا – حاضرة بكثافة في إنتاج المستشرقين بدءًا ب "جولدتسيهر"، "ألفريد غيوم"، "جيمس أندرسون"، و"جوزيف شاخت"ـــ وهي تتردد كذلك في كتابات خصوم السنة على اختلاف توجهاتهم الفكرية بدءًا بـــ: إسماعيل أدهم، محمود أبو رية، محمد أركون، عبد المجيد الشرفي، حمادي الذويب، مصطفى بوهندي .. وغيرهم، بل لسنا نبالغ إذا ما قلنا بأنّ جلّ الدراسات المنتسبة لتلك الاتجاهات والمهتمة بمقاربة مبحث "السنة النبوية" لا يخلُو واحد منها من تقرير هذه الفرضية كأنها مسلَّمةٌ غير قابلة للدحض.

ونحن هنا لا نسعى إلى مناقشة زعمِ (تأثر الإسلام بالأديان الكتابية) وهي دعوى كبيرة ومركزية قامت عليها أبحاث خصوم الإسلام من المستشرقين والمنصرين[1]، وهي تحيل فكرة الإسلام أساسا –كديانة– إلى رغبة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في محاكاة الأنبياء السابقين عن طريق إنتاج شريعة مشابهة لشرائعهم – ، إذ إن التراث الديني الكتابي كان هو المصدر الوحيد المتاحَ الذي اعتمد عليه في رسم معالم وتفاصيل شريعته الجديدة، وعليه فإن الإسلام ليس إلا نسخةً معدلة لليهودية والنصرانية[2].

---

[1]– انظر على سبيل المثال ما كتبه المستشرق النمساوي "ألفريد فون كريمر" (1889م)، في (تاريخ الغزوات الثقافية في بلاد الإسلام)، ترجمته ضمن كتاب (الحضارة الإسلامية)، خدا بخش، تعريب: مصطفى بدر، حيث يعد من الدراسات الاستشراقية المبكرة في التأسيس لهذه الشبهة.

[2]– يقول المستشرق "ألفريد غيوم": (الإسلام صورة مشوهة عن المسيحية). انظر: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ومدى اقترابهم

وهذه الدعوى – كما ترى – تعود على الإسلام كله بالإبطال، ولا ينشط لتقريرها والنضال عنها إلا من يعتقد بطلان الإسلام، وليست هي محل بحثنا هنا[3].

والكتابات الإسلامية في تفنيد دعوى اقتراض السنة النبوية من الماقبليات الدينية كثيرة، وأغلبها ظهر في سياق مناقشة مضامين كتب ومقالات أثار أصحابها الاعتراضات حول موثوقية السنة النبوية وحجيتها، ومن جملة تلك الاعتراضات هذا الذي نحن بصدده.

من أبرز هذه الكتابات:

ـ "الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة" لعبد الرحمن المعلمي اليماني (ت1386ه)

ـ "السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي" لمصطفى السباعي (ت1384ه).

ـ "دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين" لأحمد أبو شهبة (ت1402ه).

هذه الأعمال الثلاثة ألفت لمناقشة مطاعن "محمود أبي رية" في السنة النبوية أثارها في كتابه "أضواء على السنة المحمدية" ومن جملتها مزاعمه تسرب الإسرائيليات إلى السنة عن طريق مسلمة أهل الكتاب من الرواة[4].

ولسنا نبالغ إذا ما قلنا بأنّ أكثر البحوث التي كتبت في تثبيت حجية السنة ومناقشة الاعتراضات المثارة حولها والتي صدرت في الخمسين سنة الأخيرة هي تكرار للأجوبة التي قررها أصحاب الكتب الثلاثة – آنفة الذكر – . وسبب ذلك أن أكثر المزاعم التي يثيرها خصوم السنة اليوم هي أيضا نسخٌ حرفيٌ لما كتبه "أبو رية"قبل أكثر من نصف قرن دون جديد لافت.

وقد جعلت البحث في تمهيد وفصلين، بينت في التمهيد – باختصار – مرادي بـــ "الماقبليات الدينية"، أما الفصلان: فقد خصصت الأول لعرض الدعوى من نصوص أدعيائها، أتبعته بفصل خاص للمناقشة.

وقد سعيت – جهد الطاقة – إلى أن تكون المناقشة مستندة على قواعد البحث العلمي إذ هي الحكم الفصل بين المتنازعين في مسائل العلم أيًّا كانت، وأعني بها: حقائق التاريخ، وأسس المنطق، وبدهيات العقل،

من حقيقة الإسلام والقومية العربية، عبد اللطيف الطيباوي، ملحق بكتاب (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار) لمحمد البهي، ص586.

[3]- وقد أشبع العلماء المسلمون – المتقدمون والمتأخرون على السواء – الكلام على هذه الشبهة كابن حزم في (الفصل في الملل والنحل)، وابن تيمية في (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)، وابن القيم في (هداية الحيارى)، رحمت الله الهندي في (إظهار الحق)، ومحمد عبد الله دراز في (النبأ العظيم)، وغيرهم.

[4]- انظر: أضواء على السنة المحمدية، محمود أبو رية، ص118- 165.

كما أني لم أخلِ البحث من ذكر الشواهد القرآنية التي تنقض تلك الدعوى؛ إذ هي محل صالح للاحتجاج، لأن خصوم السنة – من غير المستشرقين – يزعمون التصديق بوحيية بالقرآن بل يقصرون الإيمان عليه دون الأحاديث.

وطريقتي في عرض الموضوع، أني ابتدأت بسرد آراء الحداثيين العرب حول القضية مستلة من كتبهم، و لم أذكر نصوص المستشرقين – رغم أسبقيتها تاريخيا – إلا في سياق المناقشة – التي تأتي لاحقا – لإثبات النهل المباشر للحداثة من المنجز الاستشراقي.

أولاً: تمهيد:

المرادُ بالماقبليات الدينية لدى الباحث: الموروثات الدينية السابقة للإسلام، والمنتمية – أساسا – إلى اليهودية والنصرانية المحرَّفتين، والتي تتدعي الخطابات المناوئة للتراث أنها تسربت إلى السنة النبوية بفعل رواة الحديث، أو (عن طريق الرهبان وأنصاف المتعلمين ممن دخلوا في هذا الدين) كما يدعي "صلاح الدين خدا بخش" (1908م)[5].

وهي نصوص التوراة (والتلمود) والإنجيل (العهدين الجديد والقديم)، وما انبثق عنهما من عقائد وأحكام وتعاليم الديانتين اليهودية والنصرانية المحرفتين.

ويتوسع بعض الحداثيين فيضيف إليها تعاليم المجوسية والمندائية والديانات الهندية القديمة وعقائد الأغريق[6].

فالخلاصة أن "الماقبليات الدينية" هي جل الموروثات الدينية التي كانت سائدة لدى الناس قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثانيا/ عرض الدعوى:

يحيل الخطابُ الحداثيُّ كثيرا من أبواب السنة النبوية (الغيبيات والمعجزات بالتحديد) إلى مرجعيات دينية وثقافية سابقة، ويَّدعي أن المدونة الحديثية نهلت من المصادر المسيحية واليهودية وعوائد العرب قبل الإسلام ونظمها وأعرافها.

والرصد التاريخي لبداية بروز هذه الدعوى لدى الحداثيين العرب يكشف أنه جرى توظيفها باكرا لدى الطبقة الأولى من هذه المدرسة، وبالتحديد في أطروحات الكاتب المصري "إسماعيل أدهم" الذي يرى بأن

[5]- الحضارة الإسلامية، خدا بخش، تعريب: طه بدر، ص20.

[6]- الحديث والقرآن، ابن قرناس، ص08.

النصوص النبوية تتضمن موروثات ديانات سابقة أقحمت في السنة بفعل دس بعض الرواة المتأثرين بالإسرائيليات، ويتهم أبا هريرة رضي الله عنه بأن: «مجموعة الأحاديث التي رويت عنه، تكشف بصورة جلية أنه اعتمد على المصادر المسيحية في وضع الأحاديث، إذ النصرانية بآرائها وأساطيرها ومعتقداتها جلية في مجموعة أحاديثه، حتى أنه وضع على لسان الرسول بعض فقرات الإنجيل، و لم يتورع من أن يسند إليهه الشيء الكثير من أساطير المسيحية»[7]. وكان يزعم – كذلك - بـــ«أن النظر التنقيدي لمجموعة الأحاديث المنسوبة إليه على أنه راويها؛ لا تترك مجالا للشك في أنها أتت من المصادر اليهودية، ووضعها على لسان الرسول، و لم يفعل أكثر من ترديدها في التوراة؛ مستمدا مادته من الأساطير الإسرائيلية التي تجمعت بين دفتي العهد القديم؛ محاكة من حول الإسرائيليات التي في تضاعيف القرآن»[8].

كما نجد هذا الطرح ماثلاً في كتاب "محمود أبي رية" (أضواء على السنة المحمدية)، حيث كان كثير الاتهام لمسلمة أهل الكتاب أمثال "كعب الأحبار"[9] و"وهب بن منبه"[10] بدس الإسرائيليات، ونسبتها إلى النبي صلى الله عليه وسلم[11]، و لم يستثنِ من هذه التهمة الصحابيَّ تميم بن أوس الداري، حيث نسب إليه

---

[7]- قضايا ومناقشات، إسماعيل أدهم، 230/3.

[8]- المرجع نفسه، 233/3.

[9]- هو أبو إسحاق كعبُ بن ماتعٍ الحِمْيَرِي، المعروفُ بكعبِ الأحبار، من آل ذي رُعين، وقيل: من ذي كلاع، وأصْلُهُ من يهودِ اليمَنِ، ويقال: إنه أدرك الجاهلية وأسلم في خلافة أبي بكر، وقيل: في خلافة عمر، وقيل: إنه أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وتأخرت هجرتُهُ، وذهب ابن حجر إلى أن المشهور أن إسلامه كان في خلافة عمر، وبعد إسلامه انتقل إلى المدينة، وغزا الروم في خلافة عمر، ثم تحوَّلَ في خلافة عثمان إلى الشام فَسَكَنَهَا إلى أن مات بحمصٍ سنة 32ه، وقال ابن حبان: سنة 34ه، والأول أرجح كما قال ابن حجر، وقد بلغ من العمر مائة وأربعين سنة. روى كعبٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا، وعن عمر وصهيب وعائشة، وروى عنه معاوية، وأبو هريرة، وابن عباس، وعطاء بن أبي رباح وغيرهم. انظر: الطبقات، خليفة بن خياط، ص308، والطبقات الكبرى، ابن سعد، 445/7، والأنساب، السمعاني، 270/2، وتاريخ دمشق، ابن عساكر، 151/50.

[10]- هو أبو عبد الله، وهبُ بنُ مُنَبِّه بن سِيج بن ذي كِناز، اليماني الصنعاني، من خيار علماء التابعين. قال عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه: « كان من أبناء فارس، وأصل والده مُنَبِّه من خراسان من أهل "هراة" ، أخرجه كسرى منها إلى اليمن، فأسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وكان وهبُ بنُ مُنَبِّهٍ يختلف إلى هراة ويتفَقَّدُ أمرَهَا، وقيل: إنه تولى قضاء صنعاء. ولد سنة 34ه في خلافة عثمان، وقال ابن سعد وجماعة: مات سنة 110ه، وقيل غير ذلك، روى عن أبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، وجابر، وأنس، وغيرهم، وروى عنه ابناه: عبد الله، وعبد الرحمن، وعمر بن دينار، وغيرهم. انظر: الطبقات، خليفة بن خياط، ص287، والطبقات الكبرى، ابن سعد، 543/5، والمعرفة والتاريخ، يعقوب الفسوي، 29/2، وحلية الأولياء، أبي نعيم، 23/11، وتاريخ دمشق، ابن عساكر، 366/63.

[11]- أضواء على السنة المحمدية، محمود أبو رية، ص118، وانظر في هذا الصدد: الموضوعات في الآثار والأخبار، للكاتب الشيعي هاشم معروف الحسني، ص191، أين يصف كعب الأحبار بأنه « معروف بين المحدثين والمؤرخين بالكذب على رسول الله والصحابة الكرام، وإدخال البدع والغرائب والمنكرات بين أحاديث المسلمين ».

"أبو رية" جريرة دسّ المسيحيات في السنة النبوية؛ بتعمده رواية الخرافات المسيحية "المخالفة للعقل" ومن ضمنها: روايات الدجال والدابة ويأجوج ومأجوج، والملائكة، والجنة والنار ..وغير ذلك[12].

ثمَّ تتابع الحداثيون على ترديد هذه المزاعم؛ فادَّعى "أركون" ب**أن نصوص التراث «تستمد غذاءها – في آنٍ معاً – من الذاكرة الجماعية للشرق الأوسط القديم، ومن التعاليم الكبرى المبثوثة في المحيط من قبل أهل الكتاب – أي اليهود والمسيحيين – ومن التراث الحيّ للشعب العربي خصوصاً في منطقة الحجاز – أي التراث الذي كان سائدا قبل الإسلام»**[13]**، فلا عجبَ – والحالة هذه – أن تخلق هذه النصوص – حسب أركون – «جوًّا سحريا، وخرافيا، ولا واقعيا، ولا عقلانيا، وخياليا، وعجائبيا، مدهشا، ومختلفا، وأسطوريا – بالمعنى غير الأنتروبولوجي للكلمة – »**[14]**؛ تأبى ثقافتنا الحديثة أن تقبله وتنغمس فيه**[15].

وفي موضع آخر يؤكد محمد أركون على قضية تأثير الماضي التاريخي والثقافي للشعوب المعتنقة للإسلام؛ في إنتاج نصوص ألحقت بالسنة النبوية ذلك «أن تاريخ الشعوب التي اعتنقت الإسلام وتنوعها، فرضت كثيرا من الأوضاع التي لم ينص عليها القرآن الكريم ولا الحديث، ولكي تدمج في السنة؛ كان لا بد من إقرارها؛ أي من إضفاء القداسة عليها، إما بحديث من الرسول ﷺ، أو بتقنية المحاكمة؛ أي القياس القانوني»[16].

ولا يختلف ما ذكره أركون عما قرره "محمد عابد الجابري"؛ من التأكيد على قضية «تسرب الإسرائيليات – وهي على العموم أخبار الغيب والجنة والنار المستقاة من التوراة والتلمود – إلى الثقافة العربية الإسلامية بشكل واسع وإلى داخل دائرة المعقول العربي ذاته»[17].

ويقرر الكاتب التونسي"عبد المجيد الشرفي" عند حديثه عن معجزات النبي ﷺ « أن عددا منها ليس إلا صدى مضخما لمعجزات منسوبة إلى الأنبياء السابقين، من ذلك على سبيل المثال: أن تخلَلَ الماء بين أصابع النبي؛ حتى روى منه أربعمائة رجل، يذكِّرُ مباشرة بتفجير موسى الماء من الصخر، كما يذكِّرُ إطعامه الجماعة الكثيرة من يسير الطعام في أماكن متفرقة بتكثير عيسى للأرغفة القليلة وإطعام الجم

---

[12]- أضواء على السنة المحمدية، محمود أبي رية، ص154.

[13]- الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، أركون، ص102.

[14]- المرجع نفسه، ص102.

[15]- المرجع نفسه، ص102.

[16]- نافذة على الإسلام، محمد أركون، ص80.

[17]- تكوين العقل العربي، محمد عابد الجابري، ص147.

الغفير منها؛ حسب رواية الأناجيل، وكذاك الشأن في رده للشمس إذ فات وقت الصلاة على غرار توقيف يشوع (Josue) للشمس مدة يوم كامل »[18]**، أما الماقبليات الثقافية التي كانت معروفة لدى العرب في الجاهلية؛ فأصداؤها بادية في الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة، يقرر "الشرفي" هذا، رغم إقراره أن هذا غير منسحب على كل المتون المنسوبة إلى النبي ﷺ، إذ** إنَّ بعضها «ذخيرة تنبض بالحياة، موحية بالمواقف النبيلة الخالدة، ولكن هذا الكتر يحتوي على الغثّ والسمين، وعلى الأخضر دومًا واليابس الذي فارقته الحياة، وعلى ما هو صدى لقيم المجتمعات التقليدية وما هو صالح في كلّ الظروف والأحوال . فهو إذن في حاجة أكيدة إلى المساءلة وإلى المرور عبر الغربال الدقيق .ولا مناص في كل الحالات من عرضه على محكّ النقد المستنير بتوجّهات الرسالة، بعيدًا عن التقديس وحرفية النصوص، فذاك بلا مراء هو شرط بقائه حيًا في النفوس»[19].

ويحيل الكاتب السوري "إسماعيل الكردي" نصوص الصحيحين الواردة في صفات الله عز وجل إلى الروافد الكتابية بمبرر أنها توهم التجسيم، فـــــــــــــ « المتأمل للصحيحين [حسبه] يجد عددًا من الأحاديث التجسيمية التي لا تؤول إلا بتعسف بالغ، والتي ينبغي الاعتراف بعدم صحة ما فيها من ألفاظ التجسيم من الأساس، إما بحمل الرواية على كونها رواية بالمعنى، أو أن لفظة التجسيم مضافة للرواية الأصلية، أو **جعل الحديث موقوفاً ومنقولاً عن مسلمي أهل الكتاب**، ونحو ذلك من المخارج الممكنة والتي لها نظائر واقعة فعلاً، انطلاقاً من القواعد العظيمة التي وضعها علماء الحديث لصحة المتون (أن لا يخالف المتن دلالة العقل القطعية ولا دلالة الكتاب القطعية ولا السنة المتواترة)»[20].

وتبلغ المجازفة بالكاتب التونسي "حمادي الذويب" مداها حين يجعل الماقبليات مستغرقةً لمفهوم "السنَّة" – كلها– ويدعي: «أن معنى الاتباع تنامى مع الزمن حتى أصبحت السنة تمثل مجموع العادات والتقاليد والأعراف الموروثة عن الماضي، والتي تتبع مثل القوانين .. وأصبحت هكذا كل الأعمال في الحاضر تقاس بمدى موافقتها لهذه السنة، المصدر الأوحد للشريعة، التي يعد اطراحها خطأ جسيما، مما جعل السنة تشكل عائقا هائلا أمام كل تجديد»[21].

---

[18]– الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، الشرفي، ص475،

[19]– الإسلام بين الرسالة والتاريخ، عبد المجيد الشرفي، ص182، وانظر: حقيقية الحجاب وحجية الحديث، محمد سعيد عشماوي، ص93.

[20]– نحو تفعيل قواعد نقد المتن، إسماعيل الكردي، ص201.

[21]– السنة بين الأصول والتاريخ، حمادي ذويب، ص29. وقد طبق بعض الحداثيين هذه النظرية على النص القرآني أيضا، فمثلاً نجد الطيب تيزيني يقول في كتابه (النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة)، ص257/256: «إن الوضعيات الاجتماعية المشخصة في المجتمع العربي بما انطوت عليه من سمات ومطالب اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية .. إلخ هي التي تدخلت

ويحمِّلُ الكاتب السوري "عبد الرزاق عيد" الصحابيَّ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما جريرة إقحام الأساطير اليهودية في أثناء السنة النبوية، ويدعي «اعتماده [أي ابن عباس] – فيما اختلق – على الأساطير الإسرائيلية، وما اتصل بها من الميثولوجيا القديمة، و لم يكن اختلاق ابن عباس للحديث إلا نتيجة لإدراكه احتياجات عصره ... وقد كان عبد الله بن عباس في عمله صورة من آباء النصرانية الأول في أعمالهم في تاريخ المسيحية، فإنهم شحنوا تاريخ المسيح بمجموعة من الأساطير اليهودية، و لم يكتفوا بذلك بل **وضعوا على فم المسيح الشيء الكثير من الأمثال الإسرائيلية**»[22].

أما "حسن حنفي" فيزعم أن صحيح البخاري هو أكثر المدونات الحديثية (إيغالا في الغيبيات والإسرائيليات والخرافات والثقافات الشعبية)[23].

ويرى الكاتب المغربي "مصطفى بوهندي"[24] بأنَّ مقولة: السنة وحي مثل القرآن «أعطى لمرويات الحديث دور الهيمنة على الكتاب، وهو ما أدى إلى تمرير مجموعة كبيرة من العقائد والشرائع والمفاهيم والأفكار ونسبتها إلى الإسلام، وخصوصا الإسرائيلية منها والمسيحية، بدعوى أنها وحي من الله إلى رسوله، وأنها تفسير نبوي لآيات قرآنية معينة. والحقيقة غير ذلك، فلا بينها وبين الآيات المفسرة علاقة، ولا هي وحي من السماء، ولا هي تفسير نبوي، وإنما حملته الثقافة العربية الإسلامية من بقايا الثقافات الإنسانية؛ فصبغ بصبغتها الدينية، ونهج مناهجها العلمية، وقدم إلى العالمين على أنه من الدين القويم»[25].

ولا تقتصر الماقبليات الدينية التي يُزعم أنها مسؤولة عن تشكيل وخلق نصوصٍ منسوبة للنبي ﷺ على الديانتين اليهودية والنصرانية؛ بل إننا نجد ضمن الخطاب الحداثيّ من يقرر بأن ما يسمى السنة النبوية مشتملة على «قصص من التراث المندائي والمجوسي والهندي والإغريقي، ومن كل تراث»[26].

وجديرٌ بالإشارة هنا – أيضاً – أن هذه الدعوى حاضرة في كتابات بعضِ المنتسبين لما يعرف بـــ"التنوير الإسلامي" ممن يرى حاكمية القرآن على النص النبوي؛ حيث يرى هؤلاء أنَّ اليهود «ارتضت

في عملية خلخلة النص القرآني وتشظيه وتوزعه بنيويا ووظيفيا في اتجاهات طبقية وفئوية وأقوامية لإتنية متعددة. وقد أتى ذلك على نحو ظهر فيه هذا النص معادا بناؤه وفق قراءات متعددة محتملة تعدد تلك الاتجاهات وحواملها المجسدة بالوضعيات المذكورة إياها».

[22]– سدنة هياكل الوهم، عبد الرزاق عيد، ص232.

[23]– من النقل إلى العقل، حسن حنفي، /20.

[24]– باحث مغربي وأستاذ مقارنة الأديان بجامعة الحسن الثاني بالرباط، بالمملكة المغربية، من مؤلفاته: (أكثر أبو هريرة)، (التأثير المسيحي في تفسير القرآن).

[25]– التأثير المسيحي في تفسير القرآن، مصطفى بوهندي، ص115-116.

[26]– الحديث والقرآن، ابن قرناس، ص08.

بما دون تحريف النص القرآني ... فعمدت إلى الولوج من باب التفسير والتأويلات المختلفة، ودسّ المرويّات مستغلة التشابه الظاهر بين بعض قصص القرآن وقضايا الخلق والآخرة ومقابلاتها في التوراة، وكذلك القضايا المشتركة المتعلقة بالخلق والكون وأحوال الآخرة والدخول في اتفاصيل الدقيقة التي شغفوا بها، وامتلأت أخيلتهم المريضة بها من محاولات التحريف والتغيير في خصائص الشريعة»[27].

ومهما يكن من أمرٍ؛ فإن كثافة النصوص الحداثية الواردة في هذه البابةِ مما يعسر نقله، والغرض من سرد ما تقدم آنفا هو لفت الانتباه إلى مركزية هذه الفكرة داخل الخطاب الحداثي.

ثالثا/ مناقشة الدعوى:

1/ المرجعية الاستشراقية: يعد المنجز الاستشراقي المتناول للسنة النبوية المصدر الأول والأهمّ لدى الخطاب الحداثي، بل لسنا مبالغين إن قلنا بأنَّ جلّ المقاربات الحداثية حول التراث ليست إلا اجترارا رديئا واستلهاما استسلاميا للنظريات الاستشراقية التي توالت في الظهور منذ منتصف القرن التاسع عشر[28]، ويرجع هذا النهلُ لجملة من الأسباب أهمها:

– كسلُ الخطاب الحداثي، وتقصيره الشديد في استجماع أدوات البحث الأساسية التي يحتاجها كل خائض في لجة "التراث" والمعارف المتصلة به: من معرفة بالعربية وفنونها، وإحاطة بنصوص الوحي ومصادره، واطلاع على مختلف العلوم التقليدية ذات الصلة الوثيقة بالتراث، وافتقار منظري الحداثة لصفات البحث الضرورية: كطول النَفَس، والصبر على البحث، والتجلد وتحمل المشاق في الرحلة وجمع المصادر، إذا ما قورن بالاسشتراق، فانعكس ذلك على طبيعة الأبحاث الحداثية التي تتسم بالسطحية الشديدة والجهل بأبسط المعلومات الشرعية[29] يعرف ذلكَ كل من خالطَ الإنتاج العلمي والفكري للخطابين.

– أنهم وجدوا المنتج الاستشراقي جاهزاً بنظرياته ومقارباته، فكفاهم ذلك مؤنة البحث والتفتيش، ومشقة البدء من جديد.

---

[27]– لا إكراه في الدين إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم، طه جابر العلواني، ص67، وانظر: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، أبو القاسم الحاج حمد، ص51.

[28]– هناك عشرات الدراسات التي بحثت تأثير الاستشراق في الخطاب الحداثي العربي المتناول للتراث، انظر مثلا: أثر الاستشراق على الفهم الحداثي للقرآن، كاظم جواد الحكيم، والأثر الاسشتراقي في موقف محمد أركون من القرآن الكريم، محمد سعيد السرحاني، والاسشتراق في عصر ما بعد الحداثة أسسه ونتائجه، حميد بارسانيا وهادي بيكي ملك آباد، ترجمة: حسن الصراف، بحث منشور في مجلة "دراسات استشراقية"، العدد: 10، السنة الرابعة، شتاء 2017م، ص20-46. .. وغيرها.

[29]– تأمل على سبيل المثال زعمُ "عبد المجيد الشرفي" أحد أبرز منظري الحداثة الدينية في تونس بأن أبا هريرة رضي الله عنه رويت له أربعة آلاف حديث في صحيح البخاري. انظر كتابه: تحديث الفكر الإسلامي، ص21.

– الهزيمة النفسية أمام سطوة الفكر الغربيّ باعتباره المزاج المهيمن؛ جعلَ الحداثيين يتزينون بالأطروحات الاستشراقية، ويقررونها في كتبهم وندواتهم، ويحرصون على الانتساب إلى المؤسسات البحثية في الغرب، لاسيما وأنّ لفيفا من الحداثيين تلقى تعليمه الجامعي بالأساس في محاضن الاستشراق الكبرى في أوروبا أو أمريكا[30]، وذلك مكنهم من النهل المباشر من المصادر الاستشراقية التي لم يترجم أكثرها.

وقد لفتَ "مصطفى السباعي" الانتباه باكرا إلى هذه الاقتراض الحداثيّ، حين قال: (ويمثِّل هؤلاء أيضاً الأستاذ أحمد أمين في كتابيه " فجر الإسلام" و" ضُحى الإسلام " وقد بيَّنتُ ما في فصل «الحديث» من كتاب (فجر الإسلام) من سرقة لآراء المُسْتَشْرِقِينَ دون أنْ ينسبها إليهم في كتابي الذي صدر حديثاً (السُنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي).

ومن هؤلاء أيضاً الدكتور علي حسن عبد القادر في كتابه (نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي) وهو ترجمة حرفية لما كتبه "جولدتسيهر" في كتابيه (دراسات إسلامية) و(العقيدة والشريعة في الإسلام) وكذلك كان كسابقيه غير أمين حين نسب هذه الآراء إلى نفسه و لم ينسبها إلى أساتيذه المُسْتَشْرِقِينَ)[31].

وغير خافٍ تأثر "محمد أركون" بمدرسة الحوليات الفرنسية كونه درس في إحدى أهم المؤسسات الاستشراقية في فرنسا، وهي "معهد الاستشراق في باريس" على يد كوكبة من المستشرقين الفرنسيين المرموقين، مثل: "شارل بيلا"، و"كلود كاهين"، و"جاك بيرك"، لذلك تتردد آراء هؤلاء كثيرا في كتبه، وهلم جرا.

وبالعودة إلى دعوى نهل الأحاديث من التراث الديني اليهودي والنصراني، هذه الفرضية مستلهمة بدورها من الاستشراق – على غرار جلّ المقولات الحداثية- حيث تعرف حضورا كثيفاً داخل الإنتاج الاستشراقي، سواءٌ لدى المستشرقين التقليديين أو المحدَثين، وَقَلَّ مستشرقٌ له اشتغالٌ بالسنَّة والحديث، إلا وهذه الفرضية حاضرة في كتبه وأبحاثه.

يقول "سعد المرصفي": (ويَتْبَعُ إنكارهم [أي المستشرقون] لنبوَّة الرسول صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن الكريم، إنكارهم أنْ يكون الإسلام ديناً من عند الله، وإنما هو – في زعمهم – مُلَفَّقٌ من اليهودية والمسيحية وليس لهم في ذلك مستند يؤيِّدُهُ البحث العلمي البَتَّةَ!. ويلاحظ أنَّ المُسْتَشْرِقِينَ اليهود أمثال:

---

[30]– معروف أن كثيرا من الحداثيين عاش حياته كلها أو جزءاً منها في الغرب، وأكثرهم درسَ أو مارس التدريس في جامعاته، فعلى سبيل المثال: درس نصر حامد أبو زيد في جامعة "ليدن" الهولندية ذائعة الصيت، ودرَّس "أركون" في العديد من الجامعات الغربية: السوربون بفرنسا، وبرنستون بالمملكة المتحدة، وجامعة برلين، وجامعات أمريكية كثيرة، واشتغل "أحمد صبحي منصور" في جامعة "هارفارد"، و"فهمي جدعان" في جامعة فرانكفورت، وعاش "جورج طرابيشي" الشطر الأخير من حياته في باريس ... وهلمّ جرا.

[31]– المستشرقون ما لهم وما عليهم، مصطفى السباعي، ص11.

"جُولْدْتسيهِرْ" و "شَاخْتْ" هم أشد حِرْصاً على ادِّعاء استمداد الإسلام من اليهودية وتأثيرها فيه! أما المُسْتَشْرِقُونَ المسيحيون فَيَجْرُونَ وراءهم في هذه الدعوى المتهافتة، إذ ليس في المسيحية تشريع يستطيعون أنْ يزعموا تأثُّر الإسلام به، وأَخْذِه عنه، وإنما فيها مبادئ أخلاقية، زعموا أنها أثَّرت في الإسلام، ودخلت عليه منها، كأنَّ المفروض في الرسالات الإلهية أنْ تتعارض مبادؤُها الأخلاقية، وكأنَّ الذي أوحى من قبل هو غير الذي أوحى بعده، فتعالى الله عَمَّا يقولون علواً كبيراً!.

والظاهر أنَّ المُسْتَشْرِقِينَ اليهود أقبلوا على الاسْتِشْرَاق لأسباب دينية، ترمي إلى التشكيك في قِيَمِ الإسلام، بدعوى فضل اليهود عليه وكأنَّ اليهودية مصدره الأول، ولأسباب سياسية تتَّصل بخدمة الصهيونية فكرة أولاً، ثم دولة ثانياً)[32].

وإليك جملة من الاقتباسات من داخل التراث الاستشراقي تؤكد هذه الأسبقية:

يقول المستشرق المجري "جولدسيهر": «هناك جمل أخذت من العهد القديم والعهد الجديد وأقوال الربانيين أو مأخوذة من الأناجيل الموضوعة، وتعاليم الفلسفة اليونانية، وأقوال من حكم الفرس والهنود، كل ذلك أخذ مكانه في الإسلام عن طريق الحديث ... وعن هذا الطريق دخل الإسلام وتسرب إليه كتر كبير من القصص الدينية؛ حتى إذا ما نظرنا إلى الموارد المعدودة في الحديث ونظرنا إلى الأدب الديني اليهودي؛ فإننا نستطيع أن نعثر على قسم كبير دخل الأدب الديني الإسلامي من هذه المصادر اليهودية»[33].

ويقول أيضا: «ما من أمر يوصف عندهم بالفضل أو العدالة، إلا إذا كان له أصل في عاداتهم الموروثة، أو كان متفقا معها، وهذه العادات التي تتألف منها السنة، تقوم عندهم مقام القانون أو الديانة، كما كانوا يرونه المصدر الأوحد للشريعة والدين، ويعدُّون اطراحها خطأً جسيما»[34].

---

[32]- المستشرقون والسنة، سعد المرصفي، ص18.

[33]- العقيدة والشريعة في الإسلام، جولد سيهر، ص51-52.

[34]- المستشرقون ومصادر التشريع الإسلامي، عجيل النشمي، ص82. وانظر: المستشرقون والسنة النبوية، سعد المرصفي، ص31.

واشتهر "ألفريد غيوم"[35] بمقولته: «الإسلام صورة مشوهة للمسيحية»[36]، وكان يرى: «أن كثيرا من متون الأحاديث ... تشابه ما جاء عند اليهود والنصارى واليونان، إلا أن أحدا من المحدثين لم يجرؤ على ردها لأن الأمة كانت قد أجمعت على قبولها اعتمادا على حديث ورد فيه: ﴿لا تجتمع أمتي على ضلالة﴾[37]، وحديث آخر فيه أن محمدا صلى الله عليه وسلم قال: ﴿إن جاء الحديث مطابقا للقرآن فانسبوه إلي وإلا فاعلموا أنه لم يصدر عني﴾، ومن هنا صار للإجماع سلطة كسلطة المجامع الكنسية، وكل من يخالف الإجماع يرمى بالزندقة والضلال والكفر، حتى صار الإجماع سلطة النسخ، والتمكن من إبطال مفعول نص قراني، أو حديث نبوي»[38].

---

[35]- ألفرد غيوم A.geom: مستشرق بريطاني ولد سنة 1888م، درس وتخرج من جامعة أكسفورد، وعمل محاضرا في المعهد الملكي بلندن سنة 1920م، وأستاذا للغات الشرقية في جامعة درهام إلى سنة 1930م، ثم أستاذ زاشرا في جامعة أستانبول، فأستاذا للغة العربية في جامعة برنستون سنة 1947م، عرف بتعصبه ضد الإسلام، وتغلب الروح التبشيرية عليه، يظهر هذا من خلال كتابه (الإسلام) الذي يقوم على فكرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم اقتبي الإسلام من التوارة والإنجيل، والذي ننقل مقاطع منه في هذا البحث، توفي "غيوم" سنة 1962م، ومن مؤلفاته: (تراث الإسلام)، و(أثر اليهودية في الإسلام)، و(التشريع الإسلامي) .. وغيرها. انظر: المستشرقون، نجيب العقيقي، 85/2، والاستشراق والمستشرقون، مصطفى السباعي، ص30، ومستشرقون سياسيون جامعيون مجمعيون، نذير حمدان، ص231.

[36]- المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ومدى اقترابهم من حقيقة الإسلام والقومية العربية، عبد اللطيف الطيباوي، ملحق بكتاب (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار) لمحمد البهي، ص586.

[37]- روي مرفوعا عن مجموعة من الصحابة:

أخرجه أحمد في (المسند)، 200/45، عن أبي بصرة الغفاري رضي الله عنه، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد)، 177/1: «وفيه رجل لم يسم».

وأخرجه: الترمذي في (السنن)، أبواب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، 36/4، وابن أبي عاصم في (السنة –ظلال الجنة)، ت: محمد ناصر الدين الألباني، 39/1، والحاكم في (المستدرك)، 200/1، عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وأخرجه: الحاكم في (المستدرك)، 202/1 عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأخرجه أبو داود في (السنن)، أول كتاب الفتن، ذكر الفتن ودلائلها، 307/6، عن أبي مالك الأشعري ﷺ، قال ابن حجر في (التلخيص الحبير)، 299/3: «في سنده انقطاع».

وأخرجه ابن ماجه في (السنن)، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرين، أبواب الفتن، باب السواد الأعظم، 96/5، وابن أبي عاصم في (السنة)، 41/1، والطبراني في (مسند الشاميين)، ت: حمدي السلفي، 196/3، عن أنس بن مالك ﷺ، وضعف إسناده الهيثمي في (مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة)، ت: محمد الكشناوي، 169/4.

وطرق هذه الأحاديث لا يخلو كل منها من مقال كما قال ابن حجر في (التلخيص الحبير)، 299/3، وكما نقله الهيثمي في (مصباح الزجاجة)، 169/4 عن شيخه العراقي.

والحديث حسنه الألباني بمجموعه طرقه في (السلسة الصحيحة)، 319/3، والأرنؤوط لمجموع شواهده كما في تحقيقه على (سنن ابن ماجة)، 96/5.

[38]- الإسلام، غيوم، ص94-97، نقلا عن (من افتراءات المستشرقين حول أساليب المحدثين في العناية بمتون الأحاديث)، عزية

ويزعم "غيوم" أن جل أحاديث المعجزات منقولة من أناجيل النصارى ويضرب على ذلك أمثلةً بـــ «حديث أنس عن البركة التي حلت في طعام أبي طلحة وأم سليم مأخوذ عن القصة التي وردت في إنجيل يوحنا ... وأن الأحاديث التي وردت عند المسلمين حول بركة محمد صلى الله عليه وسلم التي شفي بفضلها بعض الصحابة، كشفاء عيني علي بن أبي طالب في إحدى المغازي مأخوذ عن إنجيل مرقص 12:33، ونبع الماء من بين أصابعه مأخوذ من معجزات المسيح»[39]، ويستدلُّ على ذلك بقوله بـــ«أنه قبل فتح البلاد التي يسكنها النصارى لم يكن المسلمون يعرفون لمحمد صلى الله عليه وسلم معجزة غير القرآن، لكن بعد الفتوحات نسبوا له معجزات حسية شبيهة بمعجزات المسيح»[40].

كما يدعي أن تقبيل الحجر الأسود له صلة بالعبادات الوثنية. يقول: «على الرغم من أن الإسلام قد حرم إقامة الشعائر حول الأنصاب، وسماها رجسا من عمل الشيطان، وحض المؤمنين على اجتنابها، وعلى الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم قد حض أتباعه على ضرورة تجنب عبادة الأوثان، وأصر على ضرورة توحيد الله في كثير من الأحاديث التي تعج بها كتب السنة عند المسلمين، كقوله لصحابته: ﴿من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة﴾ [41]، لكنا نجد أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد أباح كل ذلك فيما يتعلق بتقبيل الحجر الأسود، وبالرغم من أن الإسلام قد عاب على الكفار لمس الأحجار والتبرك بها وعبادتها، إلا أن الوثنية قد تسللت إلى الإسلام، لأن كل العالم الذي كان يحيط بالإسلام كان يكتظ بالوثنيين، ومما لا شك فيه أن الأحجار والأشجار والأصنام، وينابيع المياه، والآبار كانت مقدسات الوثنيين، لأن منهم من كانوا يعتقدون أنها مساكن آلهتهم. وما زالت عادة وضع قطع من الأقمشة والنقود والهدايا وغيرها في فروع شجرة مقدسة، أو صخرة تسكنها آلهتهم موجودة حتى اليوم في معظم بلاد الشرق الأدنى، ومما لا شك فيه أيضا: أن هذه المعتقدات تتنافى مع فكرة توحيد الإله الذي توجه إليه محمد صلى الله عليه وسلم بعد معرفته

علي طه، لحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية، الصادر عن الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية، عدد:31، 283/31-284.

[39]- الحديث في الإسلام، غيوم، نقلا عن (دفاع عن السنة النبوية الشريفة)، عزية علي طه، ص49.

[40]- المرجع نفسه، ص49.

[41]- أخرجه البخاري في (الصحيح)، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم:129، وفي كتاب الجنائز، باب ما جاء في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله، رقم:1237، 1238، وفي كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب أداء الدين، رقم:2388، وفي كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم:3222، وفي كتاب الاستئذان، باب من أجاب بلبيك وسعديك، رقم:6268، وفي كتاب الرقاق، باب المكثرون هم المقلون، رقم:6443، وباب قول النبي ﷺ: ﴿ما أحب أن لي مثل أحد ذهبا﴾، رقم:6444، وفي كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة، رقم:7487. وأخرجه مسلم في (الصحيح)، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ومن مات مشركا دخل النار، رقم:150، 151، 152، 153، وفي كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة، رقم:32، 33.

لليهود وديانتهم، لكن نبي الإسلام لم يستطع أن يتخلى عنها كلها، وفضل التمسك ببعضهما استمالة لعبدة الأوثان، لأنه كان يأمل أن يناصروه ويؤيدوا دعوته»[42].

وإن كان "غيوم" قد وجّه تهمة الاقتباس إلى النبي ﷺ مباشرة؛ فإنه كذلك لم يبرئ المسلمين من هذه الجريرة، لا سيما مسلمة أهل الكتاب من الرواة، فنجده تحت عنوان (تأثير اليهود على الديانة المحمدية) يذكر «أن نشاط اليهود الواسع في التجارة وخبراتهم بالزراعة جعل العرب يتأثرون بهم، فكبر اليهود في أعين العرب، وذلك مما أدى إلى تسرب بعض القصص الدينية اليهودية إلى الديانة الإسلامية»، ثم يؤكد هذا الزعم بقوله: «لقد كان هناك يهوديان ينحدران من أصل يمني، وهما اللذان لعبا دورا كبيرا في شرح وتفسير القرآن والسنة»[43].

أما "جوزيف شاخت" فيَّدعي هذا المستشرق بأن النبي ﷺ: «لم يكن قصده خلق نظام يضبط به حياة أتباعه، أو وضع أصول هذا النظام على الأقل، بل ظل القانون العرفي العربي القديم الذي تضمن كثيرا من العناصر الدخيلة من رومية إقليمية، وبابلية ويمنية، يسير الإسلام سيره الطبيعي، ودخلت عليه بعض التغييرات لتلائم بينه وبين الظروف الإقليمية للبدو وأهل مكة»[44].

ويقول "مويس سيل": «و لم يتوقف النقل عن أهل الكتاب عند حد شرح الحديث فقط، بل إن بعض أفعال عيسى وأقواله قد تسربت إلى سنة المسلمين، ونسبت إلى محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أمثلة ذلك ما يدعيه المسلمون من أن نبيهم قد أعطى الشفاعة والمقام المحمود، ولكننا نعلم جميعا أن ذلك قد أخذ عن سفر (أعمال الرسل) حيث جاء فيه ما يلي: قال الرب للرب: اجلس عن يميني، فعندها يقضي عيسى بين الناس»[45].

والفرق هنا جليٌّ؛ فإن حديث الشفاعة لا ينصُّ على أن النبي ﷺ يقضي بين العباد يوم القيامة، كما هو الحال في عيسى عليه السلام فيما ينسبه إليه سفر (أعمال الرسل)، فدعوى الاقتباس مردودة كما هو ظاهرٌ.

ويقرر المستشرق الإنجليزي "جيمس نورمان أندرسون"[46] في كتابه (ديانات العالم القديم) بأنه «لا يمكن

---

[42]- الإسلام، غيوم، ص75 نقلاً عن (من افتراءات المستشرقين على أحاديث التوحي)، عزية علي طه، ص24.

[43]- الإسلام، غيوم، ص75-81، نقلا عن (المرجع نفسه)، ص24.

[44]- أصول الفقه المحمدي، جوزيف شاخت، ترجمة: إبراهيم خورشيد، وآخرون، ص50. وانظر: دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، محمد مصطفى الأعظمي، ص05 وما بعدها.

[45]- الديانة الإسلامية، موريس سيل، نقلا عن (من افتراءات المستشرقين حول أساليب المحدثين في العناية بمتون الأحاديث)، عزية علي طه، بحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية، الصادر عن الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية، عدد:31، 283/31.

[46]- ج.ن. أندرسون Anderson.J.N.D: مستشرق إنجليزي، تخرج من كلية اللاهوت في "جامعة كمبريدج"، وتعلم العربية

أن يكون هناك شك على أية صورة، أن محمدا قد تمثل أفكارا من التلمود وبعض المصادر المحرفة، أما بالنسبة للمسيحية فإن هناك احتمالا طاغيا بأن محمدا قد استمد إيحاءه منها»[47].

ويقول المستشرق الإنجليزي "ستيوارت هنري براون" في كتابه (نظم العقائد المغايرة للمسيحية: الإسلام ومؤسس الإسلام): «لقد تأثر محمد صلى الله عليه وسلم بمعتنقي ديانتي التوحيد: اليهودية والمسيحية، إذ لم يبخل عليه الأحبار والرهبان بالمعلومات التي تتعلق بهاتين الديانتين، وتشهد بذلك كتب السيرة عند المسلمين أنفسهم، فهي تروي لنا رحلات محمد صلى الله عليه وسلم إلى الشام، وكيف أنه التقى ببعض الرهبان في رحلاته كالراهب بحيرا، والذي يدعي المسلمون أنه بشر محمدا صلى الله عليه وسلم بأنه نبي اليهود المرتقب. إن مثل هذه الأخبار كانت قد شدت انتباه هذا الطفل اليتيم إلى الديانة المسيحية، وبالتالي إلى الديانة اليهودية، لأنها أصل المسيحية، ليس هذا فحسب، بل إن اليهودية كانت منتشرة في جزيرة العرب، واعتنقها عدد ليس بالقليل من العرب قبل الإسلام. ولشدة ذكاء محمد صلى الله عليه وسلم علمَ أن اليهود كانوا يشكلون قوة هائلة، بعكس النصارى، لذا نراه يزعم بأنه فعلا النبي الذي كان يرقبه اليهود، ومما لا شك فيه أن كسب اليهود يعني كسب أكبر عدد من المناصرين لدعوته، لكن اليهود لم يعترفوا بنبوته، وسخروا منه، مما جعل رسول المسلمين يغير قبلته من بيت المقدس إلى الكعبة، ويعلن أن إبراهيم وإسماعيل هما اللذان بنيا الكعبة، كما أعلن أنهما أول من دعا إلى توحيد الله وذلك ليثبت لأتباعه أنه لم يأخذ فكرة التوحيد عن اليهود، بل عن جدَّيْ العرب ... ويغلب على ظني أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن أميا لأن هناك بعض الآثار الإسلامية التي تدل بأنه كتب صلح الحديبية بيده»[48].

وتبع "ستويرت" خطوات "غيوم" في المقارنة بين الأحاديث الشريفة وأسفار التوراة، ليؤكد زعمه بأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أخذ أحاديث التوحيد عن أسفار اليهود، ومن أمثلة الأحاديث التي زعم أنها مأخوذة عن أسفار التوراة[49]: دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون نصبا، فجعل يطعنها بعود ويقول: ﴿جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد﴾.

في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، واشتغل محاضرا في معهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن، من آثاره: (الشرع والفقه الإسلامي)، (جريمة القتل في الإسلام)، و(الأحوال الشخصية في القانون العراقي). انظر: المستشرقون ما لهم ما عليهم، السباعي، ص65-67، والمستشرقون، العقيقي، ص546.

[47]- نقله عنه الدكتور عبد اللطيف الطيباوي في بحثه (المستشرقون الناطقون بالانجليزية)، ملحق بكتاب (الفكر الإسلامي) لمحمد البهي، ص598.

[48]- نقلته عنه الدكتورة عزية علي طه في كتابها (من افتراءات المستشرقين على أحاديث التوحيد)، ص26-27.

[49]- انظر: المرجع نفسه، ص27.

يدعي "ستويرت" أنَّ أمثال هذه الأحاديث التي تدعو إلى توحيد الله وعدم إشراك الأصنام والأوثان معه في العبادة مأخوذة عن بعض أسفار اليهود، ومثل ذلك ما جاء في سفر تثنية الاشتراع كقولهم: «لا يكن لك آلهة تجاهي، لا تصنع لك تمثالا منحوتا، صورة ما في السماء من فوق، وما في الماء من تحت الأرض، تسجد لها وتعبدها» [50].

أما اللبناني"فيليب حتي"[51] فيزعم « احتواء السنة على متون منقولة عن مصادر غير إسلامية، بل إن معظم نصوص السنة مأخوذ عن أناجيل النصارى، ومن أمثلة ذلك الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر أن رجلا جاء لمحمد صلى الله عليه وسلم وسأله عن العفو عن المسيء؛ فرد محمد صلى الله عليه وسلم قائلا: ﴿إن استطعت أن تعفو عنه سبعين مرة فافعل﴾52. ومما لا شك فيه أن هذا القول وارد في إنجيل متى على لسان عيسى عليه السلام، وهناك حديث آخر عن جابر وفيه أن بركة محمد صلى الله عليه وسلم حلت على طعام جابر فأكل ألف رجل من وعاء واحد و لم ينقص ذلك مما في الوعاء شيئا، وهذه القصة مستوحاة أيضا من إنجيل متى» [53].

فهذا السرد المكثف للمقولات الاستشراقية تنفي ادعاءات الجدة والابتكار التي يرفع الخطاب الحداثي شعاراتها في كل مناسبة، وتثبت – كما كل مرة – أنَّ هذا الخطاب أسيرٌ للنظريات الاستشراقية لا يكاد يخرج عنها، إلا في بعض التفاصيل التي لا تؤثر على جوهر الدعوى كتوجيه تهمة توفيد الماقبليات الدينية والثقافية الدينية إلى الرواة وليس إلى النبي صلى الله عليه وسلم نفسه كما يقرر بعض المستشرقين.

2/ تفسير التشابه بينَ بعض الأحاديث وبين النصوص الكتابيّة

---

[50]– من افتراءات المستشرقين على أحاديث التوحيد، عزية علي طه، ص27. وقد نقلت صاحبة الكتاب هذا الرأي عن عدد آخر من المستشرقين والكتاب الغربيين، انظر: ص29–30 وما بعدها.

[51]– فيليب حتي: Ph. Hitti: مستشرق لبناني مسيحي، ولد في بلدة شملان في لبنان سنة 1886م، وحصل على الباكالوريوس من الجامعة الأمريكية ببيروت، وعلى الدكتوراه من جامعة كولومبيا سنة 1915م، ثم عمل أستاذًا بقسم الدراسات الشرقية بجامعة برنستون بأمريكا، ومستشارا لوزارة الخارجية في شؤون الشرق الأوسط، له عدة كتب باللغة الإنجليزية والعربية منها: (الإسلام والغرب)، و(الإسلام منهج حياة)، توفي في بريستون في ديسمبر سنة 1978م. انظر: المستشرقون مالهم وما عليهم، مصطفى السباعي، ص43، والمبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، محمد البهي، ص25، وافتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي، عبد الكريم علي باز، ص28.

[52]– أخرجه أحمد في (المسند)، 453/9، والترمذي في (السنن)، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في العفو عن الخادم، 400/3، وقال: «حديث حسن غريب»، وأبو داود في (السنن)، أول كتاب الأدب، باب في حق المملوك، 470/7، والحديث صحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه على (المسند)، 153/5، وكذا الأرنؤوط في تحقيقه على (مسند أحمد)، 453/9، وانظر: (السلسلة الصحيحة)، 880/1.

[53]– الإسلام في نظر الغرب، فيليب حتي.

إن التشابه الموجود بين بعض النصوص النبوية، وبين ما ورد في الكتب الدينية السابقة – في البنية أو المضمون- سواء ما تعلق بالإخبار عن ذات الله وصفاته، أو ما ورد في كشف الغيوب الماضية والمستقبلية، أو في وصف معجزاتِ الأنبياء، أو في بعض التشريعات والأحكام – إن وجدَ - لا يدلُّ على أنَّ الإسلام استلهم هذه القضايا من الأديان الأخرى، أو أنَّ المسلمين الأوائل اقتبسوا ونقلوا ما وجدوه عند اليهودية والنصرانية إلى الإسلام، عبر تسريب نصوصٍ تتحد مع الموروثات الدينية في المحتوى والمضمون، ثم نسبوها إلى السنة النبوية، بل يمكن تقديم تفسير منطقي ومقبول لهذا التشابه، وهو أن شريعة الإسلام وشرائع الأنبياء السابقين، متحدة المصدر والغاية، فكلها من عند الله عز وجل[54]، الذي أرسل الأنبياء والرسل إلى أقوامهم برسالة واحدة، وهي الدعوة إلى التوحيد (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ) [الأنبياء: 25]، فلا عجبَ إذاً أن تحصل المماثلة بين النصوص الإسلامية وما لم يحرف من نصوص الكتب السابقة. بل «ليس من الإنصاف في شيء أن نقول: إن ما وجد في الدين الإسلامي، ووجد في اليهودية أو النصرانية أن يكون مأخوذاً منها، فقد توافق القرآن الكريم الذى لا شك في تواتره، وصونه عن أي تحريف، والتوراة والإنجيل في بعض التشريعات، والأخلاقيات والقصص، فهل معنى هذا أنه مأخوذ منها؟ أعتقد أن الجواب بالنفي ... ومما ينبغي أن يعلم أن الشرائع السماوية مردها إلى الله سبحانه، وأن العقائد، والفضائل الثابتة، والضروريات التي لا تختلف باختلاف الأزمان، ولا باختلاف الرسالات أمور مقررة فى كل دين. وصدق الله عز وجل: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحاً وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ) [الشورى:13]، لكن هذه الأصول، والفضائل، والأخلاقيات، والضروريات جاءت في الدين الاسلامى أوفى ما تكون وأكمل ما تكون، وأصلح ما تكون، لكل زمان ومكان. ولما كان الأمر كذلك فليس في العقل، ولا في الشرع ما يمنع أن تتوافق في بعض التشريعات، وفى بعض الأخلاقيات، وما حرف من: الكتب السماوية السابقة لم يحرف جميعه. وقد كان القرآن الكريم- بحكم أنه سلم من التحريف والتبديل، وتوافرت الدواعي والأسباب لوصوله إلى الأمة الإسلامية كما أنزله الله تبارك وتعالى، مهيمناً أي شاهداً على الكتب السماوية السابقة، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه فهو باطل، قال تعالى (وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ) [المائدة: 48]»[55].

وتقول الدكتورة "عزية علي طه": «أما الشبهة التي أثارها غيوم حول التشابه بين بعض معجزات

---

[54]- هذا طبعا قبل تحريف الكتب السماوية.

[55]- دفاع عن السنة وردّ شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين وبيان الشبه الواردة على السنة قديما وحديثا وردها ردا علميا صحيحا، محمد أبو شهبة، ص253-254.

رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسية والمعجزات النبوية للسيد المسيح عليه السلام في الأناجيل فيمكن تفسيرها في ضوء الحقائق المعروفة عن الأصول المشتركة لجميع الأديان السماوية، لأن هذه الأديان في حقيقة الأمر نابعة من مصدر واحد، وهدفها واحد، وغايتها واحدة، وإن اختلف الأنبياء الذين أرسلهم الله سبحانه وتعالى باختلاف العصور والأزمان. ولقد أثبت القرآن لبعض الأنبياء معجزات كناقة سيدنا صالح وعصا موسى، ومعجزات عيسى كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، فلا غرابة إذن أن يؤيد الله سبحانه وتعالى سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بمعجزات تتوافق مع طبيعة عصره، فإن معجزات الكبرى هي القرآن الكريم بجانب بعض المعجزات الحسية التي وردت في كتب السنة الصحيحة»[56].

والاستناد على مجرد التشابه بين النصوص الحديثية والنصوص الدينية السابقة لتأسيس دعوى كبيرة كاقتباس الإسلام من شرائع اليهود والنصارى، أو اتهام النبي صلى الله عليه وسلم باستنساخ تلك الشرائع – كما يقرره المستشرقون –، أو تحميل المحدثين جريرة الإخفاق في اكتشاف تسريب الرواة للإسرائيليات والمسيحيات – كما هو زعم الحداثين –؛ تثبيت كل ذلك « يحتاج إلى شواهد حاسمة ذات نتائج قاطعة، وهيهات أن تكفي النتف المتقطعة والإشارات والاستدلالات المتعسفة، والتخمينات الذكية في هذا المقام فضلا عن أي مقام، ونحن نحتاج لخيال قوي جدا لمتابعة القول بأن محمدا الذي قرر الأصول الدينية أنه لم يكن يقرأ أو يكتب؛ كان على التخطيط الذي أنشأه المستشرقون له؛ قد جلس عاكفا في مكتبته يبحث كتب الأولين لينقل عنها، لأجل تأليف الكتاب المعروف بالقرآن»[57].

وهناك ملحظ أخير ذي صلة بافتراض المستشرقين أن النبي صلى الله عليه وسلم استفاد من التراث الديني الكتابي ونقل منه، وهو أمر ممتنع – تاريخيا – لأننا لو سلمنا جدلا بحدوثه – فمعنى ذلكَ أن النبي عليه السلام اطلع على هذا التراث ونقل منه «حين لم يكن هناك ترجمة عربية للكتاب المقدس يقتبس منها»[58]، فأنى ذلك؟ وما السبيل لتفسير ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم مما لم يرد له ذكر في التوراة ولا في الإنجيل، ولا في أيٍّ من الكتب الدينية السابقةِ؟

فـــمع التسليم بحصول شيء من التشابهِ بين النصوص الإسلامية وبين النصوص الدينية السابقة – في الشكل والمضمون – إلا أنَّ التباينَ والتمايز والاختلاف هو الأغلب والأظهر، وهذا جليٌّ لمن لديه أدنى اشتغالٌ بعلم (مقارنة الأديان)، فـــ«الدين الذي أتى به محمد ﷺ أوسع أقطاراً وأرحب أفاقاً مما سبقه؛ فكيف يتصور أن يأخذ الغني من الفقير؟! إن التوراة التي في أيديهم اليوم لم تتحدث عن الدار الأخرة، عن

---

[56]– دفاع عن السنة النبوية الشريفة، عزية علي طه، ص54.

[57]– المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ومدى اقترابهم من حقيقة الإسلام والقومية العربية، عبد اللطيف الطيباوي، ملحق بكتاب (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار) لمحمد البهي، ص586.

[58]– المرجع نفسه، ص587.

الجنان وما فيها من مثوبة، وعن النيران وما فيها من عقوبة، والإنجيل كما هو اليوم عقيدة لا شريعة»[59].

3/ الفرق بين نقلِ السنة ونقل النصوص الدينية الكتابيّة السابقة:

كلٌّ من له اشتغالٌ بتأريخ النصوص الدينية ونقدها – من المؤرخين والفلاسفة واللاهوتيين يعي – يقينا – علوَّ النص الحديثي وتفوقه في جانبي: النقل والنقد على سائل النصوص الأخرى.

وهذه الحقيقة مسجلة في اعترافات عدد من المستشرقين المرموقين والأكاديميين الغربيين، أعني الفروق الهائلة بين منهج نقل ونقد المرويات الإسلامية، ونقل ونقد الروايات الكتابية، وتفوق علم النقد الحديثي وأسبقيته على باقي المناهج الموضوعة لنقد النصوص الكتابية، فكيفَ ينسب الأعلى إلى الأدنى؟

تلك الاعترافات جاءت صريحة بأن المنهج الإسلامي في سبر المرويات أفلح في تحقيق اليقين بصحة الوجود التاريخي للنبي صلى الله عليه وسلم، وكذا بتحقق كثير من التفاصيل التاريخية المتعلقة بحياته، في الوقت الذي أخفقت فيه آليات نقل الأناجيل في تخليق اليقين ذاته أو ما يقاربه.

ومن ذلك قول الباحث الألماني الشهير بانتقاد تاريخية أخبار أناجيل النصارى "جورج ألبرت ويلز": (الأدلة المتعلقة بتفاصيل سيرة عيسى غير شافية لو كانت سيرته لها شهادات جيدة كما هو الأمر مع "يوليوس قيصر"، و"محمد"، و"الملكة آن" لما احتاج أحد إلى تشويه الأدلة المتعلقة بذلك باعتبارها تؤسس لمحض احتمالات وأن يبحث في مكان آخر عن اليقين)[60].

ومعلوم أن أداة نقل تلك الأخبار وتمحيص الزائف عن الثابت منها، كان علمَ الرواية.

ويقول المستشرق الأميركي"بنيامين بوزموث سميث" في تقرير هذه الحقيقة أيضا: (كل ما يقال في الدين يغلب عليه الجهل ببدايته، ومما يؤسف عليه أن هذا يصح إطلاقه على جمهور الديانات وعلى أصحابها الذين نعدهم تاريخيين، لأننا لا نعلم وصفا أحسن من هذا الوصف؛ فإننا قلما نعلم شيئا عن الذين كانوا في طلائع الدعوة، والذي نعلمه عن الذين جاؤوا بعدهم واجتهدوا في نشر عقائدهم أكثر من الذي نعلمه عن أصحاب الدعوة الأولين؛ فالذي نعلمه من شؤون "زرادشت" و"كونفوشيوس" أقل من الذي نعلمه عن "سولون" و"سقراط"، والذي نعلمه عن موسى و"بوذا" أقل مما نعلمه عن "أمبروز" و"قيصر". ولا نعلم من سيرة عيسى إلا شذرات تتناول شعبا قليلة من شعب حياته المتنوعة والكثيرة ... أما الإسلام فأمره واضح كله، ليس فيه سر مكتوم عن أحد، ولا غمة ينبهِمُ أمرها على التاريخ، ففي أيدي الناس تاريخه الصحيح، وهم يعلمون من أمر محمد صلى الله عليه وسلم كالذي يعلمونه من أمر "لوثر" و"ملتون". وإنك لا تجد

---

[59]- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، ص78.

[60]- براهين النبوة، سامي عامري، ص76.

فيما كتبه عنه المؤرخون الأولون أساطير ولا أوهاما ولا مستحيلات، وإذا عرض لك طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة؛ فليس لأحد هنا أن يخدع نفسشه أو يخدع غيره، والأمر كله واضح وضوح النهار؛ كأنه الشمس وقت الضحى، يتبين أشعة نورها كل شيء)[61].

وبعبارة المستشرق الفرنسي العنصري "إرنست رينان" الذي ألف كتابه "حياة يسوع" ودشن به مرحلة جديدة في القراءة النقدية لتاريخية الأناجيل بسلبها كثيرا من المصداقية الموروثة: (نشأت جدور الإسلام في مرأى التاريخ على خلاف الغموض الذي تغلف به الأديان الأخرى أصولها، إن جذور الإسلام ظاهرة على سطح التاريخ، وسيرة مؤسسه معروفة لنا كمعرفتنا بسير أي من مصلحي القرن السادس عشر)[62].

أما الاستشراق الجديد= المعاصر؛ فإنتاجه حافلٌ بالإقرار بهذه الحقيقة، بل ومناقشة النظريات الاستشراقية التقليدية.

فحسب "هرلد موتسكي" (إن معايير الصحة [التي وضعها المحدثون] تؤكد مصداقية الروايات التي وضعها مؤلفو مصادر النصف الأول للقرن الهجري الثاني/الثامن الميلادي)[63]، و(هناك دلائل قوية على أن مجموعة الروايات العائدة إلى هذا الجيل جديرة بالثقة)[64].

ويرى المؤرخ البريطاني المختص في تاريخ الشرق الأوسط "برنارد لويس" بأن علماء الإسلام: (أدركوا في مرحلة مبكرة خطر الشهادات المزيفة، وبالتالي العقائد الباطلة، ولذلك طوروا علما مفصلا لنقد الحديث. يتميز – " علم الحديث" كما كان يسمى – من عدة نواحي عن النقد المصدري التاريخي الحديث، وقد اختلف العمل العلمي الحديث دائما مع تقديرات العلماء التقليديين حول صحة الرواايت القديمة ودقتها، ولكن نقد علماء الحديث الدقيق للأسانيد وجمعهم الدقيق للاختلافات واحتفاظهم بها في نقل الروايات يعطي لعلم التأريخ العربي في القرون الوسطى مهنيةً ومراسا لا نجد له نظيرا في القديم ولا مماثلا في القرون الوسطى في الغرب. وبمقارنة علم الحديث لعلم التاريخ في العالم المسيحي اللاتيني، يبدو الثاني فقيرا وهزيلا. بل حتى علم التاريخ في العالم المسيحي اليوناني، والذي هو أكثر تقدما وتعقيدا، يقصر هو أيضا مضاهاة الأدبيات التاريخية الإسلامية من نواحي الحجم والتنوع والعمق التحليلي)[65].

---

[61]- المرجع السابق، ص77.

[62] – المرجع نفسه، ص78.

[63]- بدايات الفقه الإسلامي، هرلد موتسكي، ترجمة: جورج تامر، ص16.

64- المرجع نفسه، ص18.

[65]- انظر: برنارد لويس، الإسلام في التاريخ الأفكار والناس في الشرق الأوسط، ترجمة: مدحت طه، ص193-194، وللأمانة فإني قد اعتمدت على ترجمة د. سامي عامري لنص لويس من كتابه (براهين النبوة)، ص81. حيث التقطت هذا النص النادر من كتابه أول مرة.

ومن أولئك أيضا المؤرخ اللبناني النصراني "أسد رستم" الذي أشاد – في كتابه (مصطلح التاريخ)- بأولية علم النقد الحديثي وتفوقه على باقي المناهج التاريخية إذ أن: (أول من نظم نقد الروايات التاريخية ووضع القواعد لذلك علماء الدين الإسلامي، فإنهم اضطروا اضطرارا إلى الاعتناء بأقوال النبي وأفعاله لفهم القرآن وتوزيع العدل ... فانبرى لجمع الأحاديث ودرسها وتدقيقها فأتحفوا علم التاريخ بقواعد لا تزال في أسسها وجوهرها محترمة في الأوساط العلمية حتى يومنها هذا)[66].

هذه الشواهد تعدّ مهمة للغاية، حيث إنها تشهد لعلم الحديث بالكفاءة العالية والنجاعة والتراهة، في تحييد المرويات الدخيلة وتلك المفتقرة لشروط الصحة الصارمة التي اشترطها المحدثون، كما أنها تثبت بأن التشكيك في تلك الكفاءة ليس كلمة إجماع لدى المستشرقين كما يتصور البعض.

فكيف يزعم- بعد هذا – بأنّ منهج النقد الحديثي لم ينتبه لتسرب كثير من الإسرائليات والمسيحيات إلى السنّة النبوية، وأن نقاد الحديث انطلت عليهم أكاذيب مسلمة أهل الكتاب من الرواة، فتمكنوا من تمرير المأثورات الدينية السابقة إلى المدونات الحديثية؟

إن السنة النبوية (تلقفها المسلمون بعناية، ونقدوها بحكمة، والموازين التي وضعوها لقبول السنن وردها لا تعرف الدنيا أدق منها ولا أعدل. وقد ردَّ علماء المسلمين أحاديث كثير نسبت إلى رسولهم، وهذه الأحاديث المردودة لضعف سندها أو متنها، تعتبر أقوى من التراث الديني الرائج بين اليهود والنصارى. إن "لوقا" روى عن عيسى وهو لم يره، والحديث الذي يروى عندنا بهذه الصفة لا نعترف بقيمته العلمية ولا التاريخية، فكيف يجيء رجل بيته من زجاج أو بيته من خيوط العنكبوت، ليحاول مهاجمة دين حوله سياج من حديد»[67].

يقول السيد محمد رشيد رضا: «نقل معجزات نبينا الكونية أضبط وأصح من نقل معجزات المسيح عليهما السلام، لأن لها أسانيد متصلة، أشخاصها معروفون؛ إذ وضع لهم كتب مخصوصة في تاريخهم؛ ولذلك ترى المحدثين يقولون: إن سند هذه المعجزة صحيح، وسند هذه ضعيف، وهذه ثابتة وهذه مكذوبة أو واهية؛ لأن في سندها فلانًا الذي كان يكذب في بعض الأحيان، أو فلان الذي كان كثير النسيان، وليس للنصارى مثل هذه الأسانيد المتصلة»[68].

ويقول أيضا: «فليأتنا المخالفون بضبط كهذا الضبط وأسانيد كهذه الأسانيد فيما يروون عن رسلهم ومقدسيهم، ثم ليتبجحوا على عامتنا بعجائبهم وغرائبهم. وفرق أكبر من هذا بيننا وبينهم، وهو أنهم إذا

---

[66]- أسد رستم، مصطلح التاريخ، ص5-6.

[67]- دفاع عن العقيدة والشريعة، محمد الغزالي، 49.

[68]- مجلة المنار، محمد رشيد رضا، 68/6.

عجزوا عن إثبات عجائبهم لا يبقى لهم شيء، ونحن عندنا آيات الله الكبرى (القرآن) والعلم الأعلى من الأمي، وما يتبع ذلك»[69].

تلك كانت أوجها ثلاثة لتفنيد مزاعم الحداثيين ومتبوعيهم من المستشرقين وكل من تأثر بهذين الخطابين ودعواهم تسرب الماقبليات الدينية – اليهودية والنصرانية بالتحديد – إلى المدونة الحديثية، وهي – لمن تأمل – كافية – بإذن الله – في تعزيز اليقين بصحة ما ثبَّته المحدثون من الأخبار النبوية وتحصيل الثقة بصلابة منهج النقد الحديثي وأهليته في تمحيص المرويات وإقصاء الدخيل منها، ومن جملة ذلك "الإسرائيليات" وسائر المرويات المنقولة من التراث الديني السابق للإسلام.

نتائج البحث.

خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج أهمها:

ـ تسرب الماقبليات الدينية إلى السنة النبوية هو من الدعاوى المركزية لدى الاتجاهات المعترضة على صحة التراث الإسلامي، حيث تتردد في أغلب كتابات المنتمين لتلك الاتجاهات بداية بالمستشرقين وانتهاء بالحداثيين.

ـ بينت الدراسة مدى الاستلاب الذي يعانيه الخطاب الحداثي في رسم تصوراته ورؤاه إزاء السنة – والتراث بشكل عام – وكونه أسيرا للنظريات الاستشراقية لا يكاد يحيد عنها، حيث لا يفتأ الحداثيون يستلهمون المقولات الاستشراقية كمسلمات غير قابلة للدحض، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء نقد تلك المقولات أو محاكمتها علميا.

ـ أول ظهور لدعوى تسرب الماقبليات الدينية في الفضاء العربي كان على يدِ مجموعة من الكتاب المصريين على رأسهم "إسماعيل أدهم"، و"محمود أبي رية"، ثم تتابع العقلانيون على استنساخ هذه الدعوى وتقريرها في كتاباتهم إلى يومنا هذا.

ـ الحجج التي اعتمد عليها أصحاب هذه الدعوى لا تصمد أمام المحاكمة العلمية المجردة المستندة على بدهيات العقل وحقائق التاريخ.

ـ دقة منهج النقد الحديثي في سبر المرويات ونقدها، والتحقق من ثبوتها وسلامتها من القوادح يمنع من تسرب أية أخبار زائفة أو مفتقرة لشرائط القبول، سواء كانت تلك الأخبار مستلة من التراث الديني اليهودي والنصراني، أو أي مورد آخر، أو كانت من نسج الوضاعين.

ـ هذه الكفاءة – لمنهج النقد الحديثي – هي محل اعتراف من قبل كثير من المؤرخين والأكاديميين

[69]- المرجع السابق، 70/6.

الغربيين، وهم مقرون بأن المنهج الإسلامي في التأريخ لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم متفوق بمراحل على باقي مناهج التاريخ الغربية، بما فيها تلك المشتغلة بتحقيق صحة النصوص الإنجيلية والتوراتية.

ـ تفوق المنهج الإسلامي في التحقق من المرويات ينفي اعتماده على موارد أجنبية منتمية لفضاءات دينية أخرى – كتابية أو غيرها – لم تتعرض نصوصها لأي نوع من النقد والتثبت.

ـ التشابه المفترض بين النصوص الحديثية وبعض النصوص المنتمية للماقبليات الدينية – في البنية أو المضمون–، ليس دليلا كافيا على الاقتباس، بل يمكنه تفسيره باتحاد مصدر كل الشرائع السماوية واتفاق غايتها، فالشريعة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم، وما لم يحرف من شرائع الأنبياء السابقين كلها من عند الله عز وجل، وغايتها تحقيق التوحيد، فلا عجب إذن أن تحصل المطابقة في بعض الأحكام والتماثل في جملة من النصوص.

مراجع البحث

- أصول الفقه المحمدي، جوزيف شاخت، ترجمة: رياض الميلادي ووسيم كمون، مراجعة: عبد المجيد الشرفي، دار المدار الإسلامي – بيروت، ط1، 2018م.
- أضواء على السنة المحمدية، محمود أبو رية، دار المعارف – القاهرة، ط6، (د، ت).
- الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي – بيروت، ومكتبة الوراق، (د، ط)، (د، ت).
- الإسلام بين الرسالة والتاريخ، عبد المجيد الشرفي، دار الطليعة – بيروت، ط2: 2008م.
- الإسلام في التاريخ الأفكار والناس في الشرق الأوسط، برنارد لويس، ترجمة: مدحت طه، مراجعة وتقديم: أحمد كمال، آفاق للنشر والتوزيع ـ القاهرة، ط1، 2017م.
- التأثير المسيحي في تفسير القرآن دراسة تحليلية مقارنة، مصطفى بوهندي، دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت، ط1: 2004م.
- الحديث والقرآن، ابن قرناس، منشورات الجمل – كولونيا (ألمانيا)، ط:1، 2008م.
- الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية، فون كريمر، خدا بخش، تعريب: مصطفى بدر، دار الفكر العربي ـ بيروت.
- العقيدة والشريعة في الإسلام، جولد سيهر، نقله إلى العربية: محمد يوسف موسى وعلي حسن عبد القادر وعبد العزيز عبد الحق، دار الكتب الحديث – مصر، ومكتبة المثنى – بغداد، (د، ت)، ط2.
- الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع، عبد المجيد الشرفي، الدار التونسية للنشر – تونس والمؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر، ط1: 1986م.
- الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، محمد أركون، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي –بيروت، ط6: 2012م.
- المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، محمد البهي، مطبعة الأزهر – القاهرة، (د، ط)، (د، ت).
- المستشرقون والسنة النبوية، سعد المرصفي، دار المنار الإسلامية – الكويت، مؤسسة الريان – بيروت، (د، ط)، (د، ت).
- الموضوعات في الآثار والأخبار عرض ودراسة، هاشم معروف الحسني، دار التعارف للمطبوعات – بيروت، (د، ط)، 1987م.
- النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، طيب تيزيني، دار الينابيع – دمشق، (د، ط)، 1997م.
- بدايات الفقه الإسلامي في القرن الأول الهجري، هرلد موتسكي، ترجمة: خير الدين عبد الهادي، مراجعة: جورج تامر، دار البشائر الإسلامية – بيروت، ط1، 2010م.
- تكوين العقل العربي، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت، ط10: 2009م.
- جدلية الغيب والإنسان والطبيعة العالمية الإسلامية الثانية، أبو القاسم حاج حمد، دار الهادي – بيروت، ط1:

1425ه – 2004م.

- حقيقة الحجاب وحجية الحديث، محمد عشماوي، مؤسسة روز اليوسف – مصر، (د، ط)، 2002م.
- دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، (د، ط)، 1980م.
- دفاع عن السنة النبوية الشريفة، عزية علي طه، (د، ط)، (د، ت).
- دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتّاب المعاصرين وبيان الشبه الواردة على السنة قديما وحديثا وردها ردا علميا صحيحا، محمد محمد أبو شهبة، ويليه الرد على من ينكر حجية السنة لعبد الغني عبد الخالق، مكتبة السنة – مصر، ط:1، 1989م.
- دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، ط7: 2005م.
- سدنة هياكل الوهم نقد العقل الفقهي البوطي نموذجا، عبد الرزاق عيد، دار الطليعة للنشر – بيروت، ط:1، 2003م.
- عامري، سامي، (2017م)، **براهين النبوة والرد على اعتراضات المستشرقين والمنصرين**، لندن (المملكة المتحدة)، مركز تكوين.
- قضايا ومناقشات المؤلفات الكاملة، إسماعيل أدهم، تحرير وتقديم: أحمد إبراهيم الهواري، دار المعارف، مصر، (د، ط)، 1986م.
- لا إكراه في الدين إشكالية الردة والمرتدين من صدر الإسلام إلى اليوم، طه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي – فرجينيا (و. م . أ)، ومكتبة الشروق الدولية القاهرة، ط2: 2006م.
- مجلة المنار، محمد رشيد رضا، مطبعة المنار–الجماميز، ط2: 1327ه.
- مصطلح التاريخ، أسد رستم، المكتبة العصرية ــ بيروت، 2002م.
- من افتراءات المستشرقين حول أساليب المحدثين في العناية بمتون الأحاديث، عزية علي طه، بحث منشور في مجلة البحوث الإسلامية، الصادر عن الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية، عدد:31، 283/31-284.
- من النقل إلى الإبداع، حسن حنفي، دار أنباء للطباعة والنشر – القاهرة، 2000م.
- نافذة على الإسلام، محمد أركون، ترجمة: صياح الجهيم، دار عطية – بيروت، ط:1، 1996م.
- السنة بين الأصول والتاريخ، حمادي ذويب، المركز الثقافي العربي ــ بيروت، ط2، 2013م.